



مناديل بحر بورسعيد

أنيس منصور

لا أريد

أن أجمل مدينة بورسعيد أكثر مما تطيق . فنى مياه بورسعيد نزلت لأول مرة . ولكى أكون صادقاً لم أنزل الماء تماماً . وإنما مدت له يدي . ثم رددتها بسرعة . فقد لمسها شيء ناعم أخضر اللون فالتفت يدي . ثم ذراعى كلها في لحظة واحدة . أما الذى حدث فإن حيواناً يسمونه « منديل البحر » قد لمس يدي . . هل هو « منديل البحر » ؟ . هل هو « قنديل البحر » ؟ . هل هو قطعة رقيقة جداً من جهنم في حالة دفاع عن النفس ؟ !

هذا ما حدث . وظلت بعد ذلك لا أقرب البحر مطلقاً . وأعترف أنني رأيت أجمل بلاجات الدنيا . هذه العبارة ليست فيها أية مبالغة . فقد سافرت إلى القارات الخمس وملأت عيني من كل شواطئها الجميلة . وملأت عيني أكثر بالجميلات اللاتي نزلن إلى البحر في ألوانهن الجميلة . . أو في ألوان بشرتهن الجميلة . . ورأيت أن البحر الخلق ليس الماء . . ولكنهن البحر . . هن الأمواج الحية . . هن النار التي تنزل إلى البحر . . فلا هي تحرق البحر . ولا البحر قادر على إطفائها . . ووجدت في مثل هذه المعاني ما يكفيني زادا لملا العين ويوجع القلب . . ولم أنزل البحر .

والسبب الحقيقي هو أنني لا أعرف السباحة . وحاولت أن أتعلّمها . ولم أفلح . على الرغم من أن هذا ضد الطبيعة . فكل جسم في الدنيا يمكن أن يطنو إلا الطوب والمجازرة والمخديد . . أما بقية الأجسام : من إنسان وحيوان ونبات فكلها قابلة للطفو . . إلا أنا . . وهذا يؤكد أن الإنسان من تراب !

ولديما عندما سألوا أحد الفلاسفة : لماذا لا يسبح في الماء ؟ قال البيت المشهور : لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب . أنا طين . وهو ماء . والطين في الماء ذائب ! وأنا أرى أن هذا « قصر ديل » . أي عجز عن السباحة . . فليس صحيحاً أنه طين وأنه إذا نزل إلى البحر ذاب . . وإنما هو مغطى بالطين . من قلة الاستحمام . وأنه إذا نزل إلى البحر . فإن الطين الذي يغطيه يذوب فيكون أخف وزناً . وأقدر على الطفو . . ولكن الفيلسوف أعجبه باللعب بالطين والماء والذوبان . . واكتفى بهذا القدر . . ولم تكن عنده الشجاعة أن يعترف بجهله بالسباحة . . ولا أقول إنه وجد في المأبوعات ما يغنيه عن البحر رجال البحر والاسترخاء على صدر الموج . . ثم الارتقاء على الرمال مستلماً للشمس والنوم .

وفي مرة أخرى تشجعت وأنزلت إحدى قدمي في مياه جزيرة كبرى . . ولا أعرف سبباً واضحاً لذلك . . وأغلب الظن أنني عندما رأيت أحد الإيطاليين يرتدى بنطلوناً مثاليها لينطلون . وكان بنطلوناً جديداً . لاحظت أن البنطلون قد ترقق بسهولة . . وأن قلته رقيق أكثر مما يجب . . ففكرت ذلك بأن الرجل لا بد أن يكون قد سقط في الماء . . وأن مثل هذه الملابس الرخيصة لا بد أنها مفشوشة . وهناك أشياء كثيرة مفشوشة في إيطاليا : ابتداء بالفلوس وانتهاء بالبنطلونات . . فأنزلت ساقتي إلى الماء . . وكانت الأرض قريبة . . ثم أمعنت في إنزالها حتى بلغ الماء ما يقرب من الخزام . .

ولن يصدقني أحد إذا قلت أنني أخرجت ساق عارية

تماماً . . فقد ذاب البنطلون . . لقد كان مصنوعاً من الورق اللين على شكل نسيج . . لم يكن نسيجاً . . ولك أن تتصور منظري . . وأن تتصور السعادة التي أدخلتها على الجميع عندما رأوا بنطلونا باقى واحدة . . ولم أجد حرجاً بعد الفضيحة هذه من أن أدخل السان الأخرى وأحترق نفسي في الزحام نصف عربان بين العراة !

■ ومرة أخرى كنت في مدينة هونولولو بجيزيرة هاواي . . الجزيرة في قلب المحيط الهادئ . وكل شيء هادئ . قولا وفعلًا . . الموج والقر والهباء والناس هامسون . والفتيات ساجحات . . أو هامسات ساجحات . . والمشاعل هامة الدخان . . فن الذي لا يغريه الهدوء بالاسترخاء . . ومن الذي لا يستدرجه الاسترخاء إلى النوم على الرمل تحت القمر . . ووضعت تحت رأسي عدداً من جبات الأناناس وبعض أوراق الموز وتمت لأقفز في حالة صراخ كأنني ثعبان لسحق . . أو كأنني أنا ثعبان لسعت عشرات الناس من حولي . .

لقد زحف ماء المحيط الهادئ هادئاً ناعماً حتى أغرقني إلى الرأسي . . ولم أشعر بذلك . . ولما شعرت تذكرت أنني يوماً غرقت في النيل عند المتصورة وأنا طفل . . فنهضت صارخاً . . ولم أدر أن الناس حول قد جلسوا واناموا ورفصوا وسعدوا جداً بأن ماء المحيط قد غطاهم بستر رقيق ناعم تدغدغ أوصالهم . . إلا أنا . . فقد ارتدت طفلاً صغيراً غارقاً . فراح يصرخ . . والناس من حولي يضحكون كيف إن رجلاً طويلاً عريضاً قد أصابته لونة الأطفال الصغار . .

ولم أجد الشجاعة في أن أدعو الناس جميعاً وأنرح ○ لهم حقيقة الأمر . . فلا أنا أعرف الناس . ○ ولا الناس يفهمون أن أجنبياً جاء من المتصورة ○ إلى جزيرة هاواي ليلقي عليهم محاضرة موضوعها : أن المخاوف التي نعانها في الطفولة تظل متربصة بنا مدى الحياة . . حتى إذا وجدت لها مناسبة . خرجت وإذا بنا أطفال من جديد !



□ ثم هذه المرة الأخيرة في بورسعيد . . ولم أحتج إلى أن أضع يداً أو ساقي في الماء . . فقد علقت بورسعيد متدليها رتاديلها امتناناً للرجل الذي فتح الله عليه . ففتح على بورسعيد البحر سفناً . والسهاء ذهاباً . والارض أماناً . .

ولم يكن البحر في حاجة إلى أن يلقي بأنواجه إلى الشاطئ . . ولا السهاء في حاجة إلى أن تسقط مطرماً على الناس . . فائتس أمواج . ودموع اللوحة أقطار غزيرة . واغمضت عيني لا تذكر أن مدينة الهندية الإيطالية هي أيضاً كذلك : شوارعها هي بحرها . وناسها هم مرجها . . (ربح جميعاً سعداء)

إلى الدكتور سعاد!

فجميعتي في د. سعاد ماهر لا حدود لها!
فقد استمعت إلى حوار لها في
التلفزيون يوم الأربعاء الماضي..

أبداً فأقول إنها حرة تماماً في غطاء الرأس الذي
تضعه.. هي حرة أن تجعله عمامة هندية أو قبعة
برازيلية.. هذه مسألة مزاج خاص.. أو عناد خاص..
فلا يهمها ما الذي يراه الناس في التلفزيون.. ولكن يهمها
جداً ما الذي تراه هي في المرأة.

وان كنت أعتقد أنه يهمها جداً ما يقوله الناس عنها..
وإلا ما ارتدت العمامة والقفطان - النستان الذي يشبه
القفطان - ريمها أن يقول الناس عنها إنها «شيخة»
أو صاحبة الفضيلة أو الحاجة.. لأننا إذا أضفنا إلى مظهرها
هذا حركتها وهي تتأيل بيناً وشمالاً.. وتضرب بعينها في
خفر وجهها.. كل ذلك يدل على أنها حريصة على
ماسوف يفعله الناس في مظهرها.. وفي الأسباب
الحقيقية التي جاءت بها إلى التلفزيون.. أما الأسباب فهي
أنها أستاذة وعديدة للأثار.. وأن لديها من العلم ما لا عين
رأت ولا أذن سمعت.. ولا خطر على قلب بشر.

وأعترف أنا شخصياً أن الذي سمعته من د. سعاد
ماهر.. لم يحظر على بال.. وعندما خطر على بالي قد
أوجعتي.. وجعلت فجميعتي فيها لا حدود لها..
وأنا أدعو الله - مخلصاً - ألا يكون أحد قد تطاول على
الشريط الذي سجل عليه هذا الحوار ليمحوه.. وإن كنت
أنتي أن يحوه أحد إلى الأبد.

فقد أخطأت د. سعاد ماهر في النحو واللغة عشرات
الأخطاء.. أي والله.. لا خير أن ولا اسم كان..
والحقيقة الكبرى أن حرف «إل» الذي يجسر الساء
والأرض.. هذا الحرف الصغير النافذ القادر على أن يجسر
الكون ويكرسه.. لم تصل قدرته وجبروته إلى د. سعاد
ماهر.. فقد ألغت قدراً هذا الحرف وجعلته ينصب
ويرفع.. وهذا عجيب!

وغير ذلك من الأخطاء النطقية المحجلة.. أنا شخصياً
قد خلجت.. وأحسنت أنني أقت عبارة شاذة على غير
أساس.. وأن العبارة قد رقت.. وأن هذه العبارة كانت
ها عمامة مثل قبة الجامعة.. ثم تهدمت!
إنها مبادئ النحو والصرف! إنها لا تحتاج من أستاذة
كبيرة في السن والمقام والحجم والوزن والعمامة أكثر من
ساعة لتعرف حركات إن وكان وفي وعلى وإلى!
ولحسن حظ د. سعاد ماهر.. فإن الطلبة جميعاً
مشغولون بالذاكرة هذه الأيام.. الطلبة الذين يصرفون
جداً هذه المعلومات النافذة في النحو.. أما الطلبة الصغار
جداً الذين يجيدون صعوبة في معرفتها فهم بلعون في
النوارع فقد امتحانهم فيها ونجحوا..

وهي سيده محظوظة حقاً لأن هؤلاء الصغار لو رأوا
مارأيت وسعوا ما سمعت لقالوا لأنفسهم: إذن من الممكن
ألا يعرف أحد مبادئ النحو ومبادئ الحساب ويكون
عميداً ووزيراً.. فلماذا المذاكرة ورجع الدماغ..
والحن معهم..

الله مخلصاً.. بعد أن نتاح للدكتورة
وأرجو الأثرية سعاد ماهر فرصة مشاهدة هذا
البرنامج مرة أخرى تعميقاً لشعورها
بالذنب ومشاركة منها في كسوفي.. أن
تطالب معنى بمسح هذا الشريط..
أو بمسح الأرض بهذا الشريط حتى
لا يراه أحد بعد ذلك.. فتلك عقوبة
لا يستحقها أحد!

التلفزيون يقطردماً!

هناك طريقتان لكي تكون من الهندو المهر: أن
تكون هندية أمر بالفعل.. أو تظهر في
التلفزيون الملون هذه الأيام!
لقد شاهدت البرامج الملونة.. إنها برامج
دامية.. دموية.. ولا توجد مناسبة خاصة
لاستخدام اللون الأحمر دون بقية
الألوان..

فدري المطربة قد ارتدت نستاناً أحمر لتفتي لحنا حزينا..
ولتفسير ذلك يمكنك أن تقول: إنها حرة ترتدي
ما يعجبها.. ولكن ما معنى أن تكون المخرجان التي وراءها
حمر أيضاً.. والأرضية حمر..
أما الساء فهي أكثر الأشياء تلونا.. فهي مرة حمر
جداً: إذا كان النستان أحمر فاتحاً.. ومرة زرقاء جداً.. إذا
كان النستان أحمر غامقاً..
أما الألوان السبعة الشهيرة.. والتي إذا تداخلت كانت
ألف لون.. فإن مخرجي التلفزيون لا يعرفونها.. وكل
الألوان عندهم: أحمر وأزرق..

فالتلفزيون يقطردماً هذه الأيام.. والعيب في أيدي
المخرجين.. أو في المخرجين ولو كان هذا التلفزيون في
آسيا هاجت الثيران على السكان.. فالثيران في آسيا
لا تكاد ترى اللون الأحمر حتى تثور وتبجج.. ولذلك
يستدرجونها أثناء المصارعة باستخدام العبادات الحمراء..
وتحشد الله أننا لسنا في آسيا وأن الثيران التي عندنا
ليست بهذه الكثرة.. ولا التلفزيون ملق على الأرضة
والمقامي..

وحسب لو كانت عندنا هذه الثيران فإن مخرجي
التلفزيون سوف يصفون غير هذه الثيران باللون

الأزرق.. فلأترى الثيران شيئاً أحمر.. وبذلك
لا تثور..

وأمام المخرجين حل وحيد لعلاج أزمة اللون.. أو عقدة
اللون هي أن يصفوا غيرنا أيضاً.. أو يلفوا الألوان
من التلفزيون وتترك هؤلاء المخرجين فرصة التعرف على
بقية الألوان الأخرى!

إن هذا التلفزيون بألوانه الحمراء الدامية يسعد بعض
الناس ولست منهم!

أذكر أنني توقفت بسيارتي أمام إحدى المكبات ورأيت
في نافذتها كتاباً وقررت أن أشتريه.. وركبت سيارتي في
مكان قريب.. ولما عدت إلى المكبة.. لم أجده الكتاب..
رسالت البائع: ألم يكن هنا كتاب اسمه كذا؟

قال: لا.. آسف..

- ولكن رأيت منذ دقائق..

- أبداً.. ولكننا عدة نسخ من هذا الكتاب..

- واعتقد أنها سوف تصل بعد أيام..

- شيء عجيب.. ولكن رأيت..

وفجأة دخل واحد ومعه صندوق كتب.. ومن بين
الكتب الموجودة في هذا الصندوق نسخة واحدة من
الكتاب الذي رأيت في الفترية..

وأخذت الكتاب وجعلت أذكر في هذا الذي حدث..
وفجأة وجدت عدداً كبيراً من السيارات والتاكسيات
كانت تحمل الأعلام الحمراء والقمصان الحمراء..
والجميع يصرخون.. ووقفت في حالة سرحان شديد..
أفكر في حادثة الكتاب هذه..

وفجأة وجدت إلى جوارى عدداً من الحبراء السوفيت
وزوجاتهم يألون: ماذا حدث؟

هنا فقط تنبهت أن مباراة بين النادي الأهلي وبين
الزمالك في استاد ناصر سوف تقام اليوم.. إنها مباراة
العام كله..

هنا فقط أفتت من السرحان..

قلت للسوفيت: ليس انفلا.. وإنما هي مباراة في
كرة القدم!

وتغيرت ألوان السوفيت.. وأحسنت بأنهم مثل
التلفزيون الملون وقد تحول فجأة إلى تلفزيون أبيض
وأصفر.. واختفت الصورة والصوت من عيني ومن
أذني!

مثل هذا التلفزيون يعجب مثل هؤلاء الناس.. ولكنه
لا يعجبني.. وسوف تحتاج إلى بعض الوقت وبعض
الفلوس وبعض الصبر حتى يستعيد التلفزيون الملون بقية
ألوانه.. وبعد أن يستعيد الألوان يتعلم المخرجون موسيقى
الألوان

ثم ما الذي يضايقني؟

فأنا لا أرى التلفزيون في أي يوم أكثر من دقيقة
أرأنتين.. بعدها أنام..

ولذلك فأنا أرد نفسي عن الحكم في قضايا الألوان
والإخراج والتلفزيون..

ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه!

○ وقد عرفتها.. فلم يبق إلا أن يرجعني
○ الله!

أنا منصر